ذكريات .

اهتماماتى الأدبية فى لندن

عند ما أرجع بذاكرتى إلى البذور والجذور التى نشأت ونبتت منها ثقافتى الحاضرة أجد أنها تكاد جميعها تعود إلى الفترة الواقعة بين ١٩٠٧ و ١٩١١ حين كنت فى لندن . ففى تلك الفترة كانت هناك طائفة من المذاهب والنظريات ، فى الأدب والعلم ، « تتجرثم » . وقد كان من حظى الحسن أن أدركت الجراثيم الأولى لهذه الحركات . ومع أنى الآن مشرف على الستين ، فإنى أجد ، بالاستبطان الذهنى ، أن ما أعرفه أو أعتقده أو أدعو إليه من نظريات أو مذاهب فى ١٩٤٦ إنما أخذت جراثيمه الأولى فى تلك الفترة . ولم تكن الزيادة فى السنين بعد ذلك سوى زيادة فى نمو هذه النظريات والمذاهب أو التوسع فيها أو التفرع منها . وظنى أن هذا هو المألوف أيضاً فى سير التكشف الثقافى عند غيرى ، أى إننا لا نكاد بعد العشرين نجدد شيئا ، وإنما قصارانا أن ندافع عما أحببنا او تلقينا راغبين ، ثم يبعثنا الحب إلى النمو بالتوسع والتعمق . وعندى البرهان على ذلك ؛ فإنى فى ١٩٠٩ ألّفت رسالة صغيرة تبلغ نحو ٣٠ صفحة بعنوان « مقدمة السبرمان » ، حين أعود إليها الآن ، أجد فيها جميع الجراثيم الفكرية التى لاتزال تشغل ذهنى . وهى تمتاز بفجاجة فى الأسلوب مع فجور فى التفكير . إذا كانت تدل على عقل خام ناشىء ، فهى أيضا تدل على عقل مستطلع واثب .

واندمجت فى المجتمع الإنجليزى الجديد . وأعنى بنعت « الجديد » تلك الطوائف والجماعات المستطلعة المتسائلة فى « الجمعية الفابية » و « جمعية العقليين » وأمثالها . وكان كل شىء فى تلك السنين فى البوتقة فى سبيل التغير والتطور . فقد كان حزب الأحرار فى مجده يقوده كامبل بانرمان واسكويث ولويد جورج . ولكن هذا المجد كان يحمل غبار القرن التاسع عشر ، وتراكم هذا الغبار حتى لم يستطع الأحرار أن ينفضوه عنهم ، فلم تمض عليهم بعد ذلك نحو عشر سنوات حتى خنقهم . فلم نعد نسمع عن الأحرار بعد الحرب الكوكبية الأولى . وكانت

جرائم الاشتراكية تختمر فى كل أوربا ، وكان هؤلاء الأحرار أنفسهم عجينتها التى نمت فيها هذه الجرائم .

ولم يمض علىّ عام فى لندن حتى وجدتنى أتجه نحو اليسار أى نحو الاشتراكية . ولم يكن هذا الوجدان سياسيا فقط ، فقد وجدتنى اشتراكيا قبل أن اقرأ ماركس لقوة الجذب التى كانت عند الاشتراكيين فى ناحيتى العلم والأدب . ذلك أن هؤلاء المجددين فى السياسة كانوا أيضا مجددين فى العلم والأدب ، يؤمنون بمذهب داروين ، ويؤلفون جمعيات لليوجنية أى إصلاح النسل ، كما كانوا يقرأون الأدب الروسى ونيتشه وإبسن . ولذلك أدركتنى الاشتراكية عن طريق الأدب أكثر مما أدركتنى عن طريق السياسة . وكان «التطور» لا يزال مذهبا أكثر مما كان نظرية علمية . ولذلك أنفق «العقليون» مجهوداً كبيراً فى المقاومة السلبية للكتب المقدسة بدلاً من أن ينيروا أو يشرحوا حقائق التطور .

وأذكر أنه فى تلك السنوات طغى الأدب الروسى على لندن . فلم يكن هناك حديث أو سمر إلا عن جوركى أو دستويفسكى . وأذكر أنى حضرت محاضرة عن تولستوى فوجدت الحاضرين المستمعين كأنهم فى معبد خاشعين . وكانت المحاضرة أيضا أشبه بعظة دينية . وكان هذا طبعا من الانحرافات فى تفسير تولستوى ؛ لأن مقام تولستوى فى الفن كان أكبر جداً من تلك التطوحات الوعظية التى شطح فيها . وأذكر أن أحد الناشرين عرض قصة صغيرة لأندرييف تدعى « السبعة المشنوقون » فسارت فى المكتبات كأنها حريق ، فلم يكن أحد يتكلم إلا عنها . وهذا يدل القارئ على المكانة العظمى التى احتلها أدباء الروس فى لندن فى تلك الفترة ، حتى أشار إليهم برنارد شو مرة بقوله « العالقة » . ولما عدت إلى القاهرة شرعت ، بهذا التأثير ، أترجم « الجريمة والعقاب » لدستويفسكى . وطبعت منها على نفقتى جزءا يبلغ نحو ١٢٠ صفحة . ولكنى أخفقت فى نشره حتى بعت هذا الجزء بسعر مليم واحد للنسخة الواحدة . وثبطنى هذا عن المضى فى الترجمة لسائر القصة . ولكنى دأبت فى الحديث والكتابة عن الأدباء الروس ، حتى صار كثير من القراء الذين كانوا يجهلونهم على وجدان بهم .

وفى تلك السنوات عرفت إبسن ونيتشه وبرنارد شو وولز . وأذكر أنى

قضيت ليلة كاملة إلى الصباح وأنا أقرأ نيتشه وقد أخذنى سحر أسلوبه وجراءة تفكيره . ونيتشه لا يخطو ولا يعدو ، ولكنه يقتحم . ولكنى عند ما أرجع أيضاً إلى الاستبطان الذهنى أجد أنى لم أتأثر كثيرا به أو أن أثره كان مقصورا على سنوات ، على الرغم من الحماسة التى كنت أتلقى بها مؤلفاته وأحفظ بها عباراته . فأنا الآن خلو أو كالخلو من المركبات الذهنية التى أستطيع أن أعزوها إلى نيتشه . أما مؤلفات داروين مثلا فكنت أقرؤها فى عناء ومشقة ، حتى كنت أترك الكتاب أياما أو أسابيع ثم أعود إليه يحفزنى إحساس الواجب لا الرغبة ؛ فلم يكن له فى صدرى حماسة . ومع ذلك هو الباقى الآن فى كيانى الثقافى . وكتابى « نظرية التطور وأصل الإنسان » هو إحدى ثمرات داروين . ولا تزال هذه النظرية تفتق فى خلاياى الذهنية ، وتحملنى على توسع وتعمق فى التفكير البيولوچى والسيكولوچى والاجتماعى .

وهنريك إبسن يعد الآن من الكتاب القدامى ، ولكنه كان جديدا فى تلك الفترة بين ١٩٠٧ و ١٩١١ . وكان وقعه فى نفسى كبيرا ، أكبر مما كان فى نفوس قرائه الأوربيين . وذلك لأنه كان يجدد فى مجتمع كنت أعده أنا جديداً بالمقارنة إلى مجتمعنا المصرى الجامد ؛ إذ كنت أدمن التفكير فى حال المرأة المصرية والمرأة الأوربية ، وكنت كثير الإعجاب بحريتها فى باريس ولندن وأنها تملك جزءا كبيرا من مصيرها وتقرره . ولكن درامة إبسن « بيت اللعبة » أو « بيت بمروس » كشفت لى حقائق ، وبسطت لى آفاقاً جديدة ؛ لأن ما كنت أتوهمه عن حرية المرأة أو استقلالها فى أوربا إنما هو فى نظر إبسن لم يكن سوى طلاء نراه يخفى حقيقة الاستعباد القائمة ؛ لأن المرأة لا تجد من المجتمع سوى التدليل لأنها لعبة الرجل أو هى كالعروس من الخشب يلعب بها الأطفال ، أطفال الرجال الذين لا يطيقون المساواة الحقيقية بينهم وبين النساء . ومغزى الدرامة أن المرأة يجب أن ترتفع من الأنثوية إلى الإنسانية ؛ ويجب أن ترفض التدليل وأن تربى نفسها وتكسب الاختبارات فى هذه الدنيا ؛ لأنها إنسان قبل أن تكون زوجة أو أمًّا .

وعندئذ انجابت عن ذهنى غشاوة ؛ واتضح لى أن المرأة الأوربية كالمرأة الشرقية سواء ، وأن ما بينهما من فرق إنما هو طلاء الحضارة فقط ، أو هو فرق الدرجة فى الاستعباد . وهو استعباد بعيد أحيانا عن أية رحمة أو رأفة ؛ لأن المرأة

التى تعمل كالرجل لا تحصل على أجره ، وفى أقطار أوربية كثيرة كانت لا تحصل على ميراثه . وكانت الجامعات ترفض قبولها طالبة ، كما كانت ترفض الدولة قبولها ناخبة أو مرشحة لعضوية المجالس البرلمانية .

وليس لهذه الدرامة قيمة فى أوربا الآن ؛ لأن الحال تغيرت فى ١٩٤٦ عما كانت عليه فى ١٩١٠ ، بل تغيرت كثيراً جداً . وكثير من هذا التغيير يعزى إلى هذه الدرامة التى أهابت بالمرأة أن تكون إنسانا له شخصيته ومكانته فى هذه الدنيا قبل أن تكون أنثى أو زوجة لها مكانتها فى البيت .

وكنت فى تلك السنوات لا أعرف عن المسرح إلا ما كان يخرجه لنا سلامة حجازى من التمثيل الميلو درامى والأغانى الغرامية . فكانت الدرامة عندى لهواً فنياً لا أكثر . ولكن إبسن جعل الدرامة اجتماعية بل أحيانا فلسفية . وقرأته فى انتباه وقلق وتفكير كثير . وأصبحت أصد ، فى اشمئزاز ذهنى ، عن المرأة المؤنثة المغناج ، وأحترم المرأة العاملة الكاسبة التى تصر على أن تحيا وأن تعرف وتختبر . وعندى أن إبسن كان محورياً فى ثقافتى ؛ لأن دراماته بعثتنى على دراسات أخرى متصلة بالموضوعات التى عالجها هو فى أسلوبه الدرامى .

وإذا كانت أوربا قد أهملت إبسن الآن فذلك لأنها تعلمته وعملت بجميع مبادئه . ويعد برنارد شو إحدى ثمرات إبسن ، فإن جميع دراماته اجتماعية وفلسفية . ولكنه يختلف عن معلمه من حيث عجزه عن الكمال الفنى الذى استطاع إبسن أن يرتفع إليه .

وقد تأثرت كثيرا ببرنارد شو . وعند ما أسائل : لماذا لم أؤلف كتاباً عنه إلى الآن ؟ أعود بذاكرتى إلى محاولات فى هذا التأليف كان يصدنى عن المضى فيها أنى أعرف الكثير عن برنارد شو . فصعوبتى هى صعوبة خراش ، بل هى أكثر . وهى أنى زيادة على أنى سأضطر إلى الاختيار مع الإسهاب والتفصيل فإنى أيضا سوف أواجه من المبادئ والأفكار والفلسفات ما أحتاج إلى تفصيله مما لا يطيقه قارئ رجعى أو جامد لم تتفتح مسام ذهنه للتفكير العصرى بل المستقبلى . فإن برنارد شو يفكر للمستقبل . وهو علمى الذهن يفكر على آفاق فلسفية بلغة أدبية . وقد أمضيت من حياتى نحو أربعين سنة وأنا أتعلم على يدى هذا الحكيم الذى أعد حياته فى عصرنا نوراً وناراً لجميع الذين يعرفونه . ولا أظن أنه فاتنى شىء مما كتب .

والكاتب ينفعنا إما بما يبسط لنا من معارف ، وإما بما يرسم لنا من خطط واتجاهات . وبرنارد شو من النوع الثانى ؛ لأنه يسدد العقول الزائغة نحو أهداف بشرية جديدة ، ويبعثنا على الاستطلاع العلمى للدنيا والإنسان والمستقبل . والنزعة العلمية فى برنارد شو قوية جداً ، ولكنها ممزوجة بنزعة فنية أيضا . ولذلك نشعر كأنه يحس بعقله ويفكر بقلبه . وهو أحيانا يسب ويهاتر ويهدد بالمعانى العلمية . ومشاجرته مع داروين بشأن « تنازع البقاء » هى مشاجرة فلسفية سيتوقف على الإجابة عليها ، وخاصة بعد اختراع القنبلة الذرية ، مصير الإنسان . إذ ماذا يكون مصير ٩٩ فى المئة من البشر إذا ثبت أن الحق للقوة ، مهما يكن نوع هذه القوة ؟ أو إذا كان معنى تنازع البقاء هو بقاء الأصلح كما نراه فى عصرنا ؟

لقد ردَّ برنارد شو على داروين بأن ذكَّره بأن المسيح لم يكن صالحا للبقاء . . . فى النظام البيولوجى الذى وضعه داروين للتطور .

وبرنارد شو مجاهد . وأدبه هو الأدب الجهادى ، أو كما يسميه هو الأدب الصحفى ؛ لأنه يبحث الهموم والاهتمامات العصرية بالذهن العلمى فى ضوء المستقبل. وقد أحدث لى مركبات أو عقداً أدبية وفنية ذهنية كثيرة فى حياتى الثقافية لا تزال إلى الآن مثار التفكير والتأمل . .

وأحيانا حين أتأمل الكاتب العظيم أجد أنه عظيم من حيث إنه قادر على أن يترك لنا عقدة ذهنية ، فى المعنى الحسن ، تترتب عليها أفكار واهتمامات متصلة متشابكة نامية . فقد ترك إبسن فى ذهنى عقدة ذهنية هى « الشخصية الاستقلالية » التى هى الواجب الأول على كل إنسان . وترك برنارد شو عندى طائفة من العُقَد ربما كان أهمها هو النظر البيولوجى للإنسان ، وأن التطور المستقبلى للبشر يجب أن يكون له المقام الأول عند أية حكومة متمدنة . بل هو يقترح أن تكون لكل دولة وزارة خاصة بالتطور غايتها بحث الوسائل كى تتطور الأمة .

ولا عبرة بأن تكون له أخطاء وأوهام . إذ ماذا نبالى ، كما يقول نيتشه ، أن يكون فى رأس المفكر بعض الديدان ؟

ولم أر رؤيا واحدة فى برنارد شو ، بل رأيت ثلاثا أو أربعا . والرؤيا الأولى هى الاشتراكية الإنسانية . وهى بالطبع لا تختلف عن اشتراكية ماركس

العلمية . ولكن برنارد شو ، لأنه أديب وفيلسوف وفنان ، جعل المذهب الاشتراكى مذهباً إنسانيًّا ، ودمغ بالخزى كل من يجهل الاشتراكية أو لايسعى لها . وهو الذى استطاع أن ينشر هذا المذهب بين الأثرياء ؛ لأنه أثبت لهم أن أموالهم لا تساوى همومهم وما يتعرضون له من قلق ، وأن الاشتراكية إنما جاءت لتغنى وتزيد لا لتفقر وتنقص .

والرؤيا الثانية هى ديانة برنارد شو ؛ فإن مشاجرته مع داروين ينتهى مغزاها إلى أنها مشاجرة دينية . إذ كيف يمكن أن نسكن إلى كون يكون محوره ومغزاه تنازع البقاء وبقاء الأصلح ؟ وقد قلت إن من الموانع التى حالت دون تأليفى عن برنارد شو أنى أخشى الأذهان الجامدة التى لم تتسع مسامّها الذهنية للآراء الجديدة . وهنا أيضاً أقول إنى عاجز عن بعض الإسهاب أو التفصيل لديانة برنارد شو . وقصارای أن أقول إنها ديانتى وإن عمودها الفقرى هو التطور الذى يعد فيها أسلوبا وهدفا .

أما الرؤيا الثالثة فهى الإيمان بالعلم بل السلوك العلمى ولكن مع الدين . وعلم بلا دين هو القنبلة الذرية وبقاء الأصلح كما يفهم هذا الأصلح أو يتخيله تجار منشستر ونيويورك . ولكن العلم مع الدين هو السعادة البشرية والتطور إلى السبرمان .

وبرنارد شو مثل جيته قد جعل من حياته كتابا آخر ، بل ربما كان هذا الكتاب أحسن مؤلفاته . فإن الناس يقرءون حياته ويستوحون منها القدوة والصلاح . فهو الآن فى التسعين ، وقد عاش منها ستين سنة وهو نباتى . وهو يسير كل يوم ساعياً على قدمية نحو سبعة كيلومترات ، ويقرأ ويكتب كما لو كان فى الثلاثين أو العشرين . وهو يخفف من ألم الحقائق بالفكاهة ، تلك الفكاهة الجدية النارية التى تخرج منه كأنها تشنجات الحكمة أو وخزات الفلسفة .

ومن عجب أن هذا الرجل ، الذى تسترشد بآرائه وتستنير برؤاه أحسن الطبقات المثقفة فى العالم ، هذا الرجل لم يتعلم قط فى مدرسة أو جامعة . وقصارى ما حصل عليه تعليم أبتر فى السنتين الأولى والثانية من المدرسة الابتدائية . ولكن إذا عُدَّ هذا تقصيرا أو قصورا فى النظام التعليمى وبرامجه ، فإنه يجب علينا أن نعدَّ ارتقاء برنارد شو إلى القمة فى الثقافة العصرية برهانا على أن الثقافة السامية قد أصبحت مشاعة بين الجمهور ، بحيث إذا توافر الذكاء

والعناية استطاع أى فرد منه أن يصل ، من الكتب المطبوعة ، إلى أرقى ما يستطيع المتعلم فى الجامعة بل أكثر . وهذا ما لا يمكن أن يقال فى قطر مثل مصر . وإنما يقال مع التأكيد عن فرنسا أو بريطانيا أو الولايات المتحدة ؛ لأن الثقافة شائعة تفشو فى كل مكان بكل طراز الابتدائى والمتوسط والعالى . ولذلك سرعان ما يتعلم الأمى أو من هو فى مقامه ويتسلق إلى القمم .

وهناك شخصية فذة أخرى كانت محورية توجيهية فى حياتى هى شخصية هـ . ج . ولز . وظنى أنه الآن فى مرض الموت . وكل من شو وولز يبحثان العالم وكأنهما يشرفان عليه كما يشرف العمدة فى ألفة ومعرفة على قريته . ولكن بينهما مع ذلك فرق ؛ فإن شو يتجاوز الأعماق والآفاق إلى ما وراءها . وولز يتعمق ولكنه لا ينظر إلى ماوراء الآفاق . يعيش على الأرض فى حين يعيش شو فى السماء ، حتى لنحس ونحن نقرأ ولز أننا نختنق بهواء المدينة ولو أننا نتحدث إلى رجل يعرف كل ما فيها ، ولكنا نحس حين نقرأ شو أننا نتنسم أوزون البحر المعقم . وكلاهما طائر ، ولكن ولز يدرج وقلما يحلق . أما شو فدأبه الطيران والتحليق .

والمغزى فى شو أن الإنسان سيتغير ، جسما ونفساً ؛ لأن التطور يقضى بذلك . ورسالته هى أن يبعث وجدان التطور فى قرائه .

ولكن المغزى فى ولز أن المجتمع سيتغير ، فى نظمه وأخلاقه ؛ لأن الآلات قد أحدثت قوات اقتصادية جديدة سوف تضطر أمم العالم إلى أن تكون أمة واحدة . ورسالته هى أن يبعث فى قرائه وجدانا هو أن هذا العالم قريتنا الكبرى .

وولز هو بلا شك الأب الروحى للعالم الجديد ؛ فإنه يدعو إلى لغة واحدة وثقافة واحدة . بل لقد ألف فى شرح الطرق التى يجب أن تتخذ لإيجاد موسوعة عالمية يتحد فيها أبناء هذا الكوكب فى آراء واتجاهات نحو الخير والحضارة . وله ثلاثة مؤلفات تدل على اتجاهه العالمى . أولها «خلاصة التاريخ» . وقد ألفه عقب الحرب الكبرى الأولى حين كانت عبارة «الحرب لأنها الحرب» تجرى على الألسنة وتوحى الخيالات الزاهية بشأن اتحاد العالم . وهذا الكتاب هو محاولة نيرة خيرة غايتها أن نفهم أن الحضارة القائمة هى مجهود البشر جميعهم . وأن هذه الأمم الكثيرة المختلفة إنما هى أمة واحدة ، أو يجب أن تكون كذلك . وكتابه الثانى : « علم الحياة » هو دعوة إلى النظر العلمى لهذه الدنيا وسكانها من

الأحياء . وهى دعوة دينية علمية . وكتابه الثالث : « أعمال البشر وثروتهم وسعادتهم » هو بحث فى حاضر البشر وطاقتهم لحضارة قادمة .

وقد كان أثر ولز عندى نفسيًا أكثر مما كان ذهنيا . أى إنه كسبنى مزاجا عالميا يكاد يكون مساوياً للحاسة الوطنية ، فإن اهتمامى بالحركة الوطنية مثلا فى الهند يحرك عاطفتى ويثير انفعالى كالحركة الوطنية فى مصر . وكنوز أفريقيا من الحيوان تشغل ذهنى وتثير غضبى عند ما أقرأ عن عبث الصيادين فى الغابات ، كما تشغل ذهنى وتثير غضبى سياسة الإنجليز فى زراعة السودان أو ضبط مياه النيل . بل كسبت من ولز مزاج التساؤل والاستطلاع والتوسع الثقافى فى العلم والأدب والفن .

وقد كان اهتدائى إلى شو وولز عن طريق الجمعية الفابية حوالى سنة ١٩٠٧ . ولكنى واليت اتصالى بهذين الكاتبين إلى وقتنا هذا . وهما يدرسان السياسة العالمية على آفاقها العالية . ومفتاح دراستهما هو الاشتراكية والتطور .

وفى الفترة بين ١٩٠٧ و ١٩١١ كان إبسن وشو وولز عالقين بقلبى يرسمون لى معالم دراساتى فى المستقبل . ولكن كان هناك مؤلف آخر تسلط فترة قصيرة على ذهنى ، وكان تسلطه ناريا ثم عاد تحريريا ، أعنى به نيتشه . فقد التهمت مؤلفاته فى حماسة ولذة فعصفت بى . وكان ظنى وقتئذ أنه فتح لى أبوابا كانت مغلقة من قبل . ولكن الحقيقة أنى كنت مأخوذاً بسحره فى الأسلوب وجرأته فى التفكير ، وهما سحر وجرأة يستهويان الشباب . وهو يؤلف النثر وكأنه يقرض الشعر ، ويفكر وكأنه يقتحم . وانتفعت كثيراً بتحليله للأخلاق . ولكن هذا التحليل بالطبع فقد قيمته بعد أن عرفت التحليل الماركسى ، وإن كان كلاهما ينتهى إلى أن الأخلاق السائدة هى أخلاق السائدين . ولكن ماركس وصل إلى هذه النتيجة بالتحليل الاقتصادى للمجتمع على حين وصل إليها نيتشه بالتحليل التاريخى اللغوى . أما أخلاق الأقوياء التى دعا إليها نيتشه وجعل منها ديانة جديدة يجب أن يبشر بها الفيلسوف الجديد فقد استهوتنى سنوات ، بل انخدعت إليها وآمنت بها بتأييد من نظرية التطور حين استسلمت لتنازع البقاء وبقاء الأصلح . ولكن رويداً رويداً تقهقر نيتشه من وجدانى وتغير عندى مغزى التطور . بل تطورت عندى نظرية التطور ؛ فلم يعد نابليون هو السبرمان ، ولم يكن للإمبراطوريات مغزى التفوق البيولوجى الذى كاد نيتشه يوهمنى أنه كذلك .

وعرفت من ذلك ماركس وجيته وفرويد . عرفتهم عن سبيل تلك المركبات أو العُقَد الذهنية التى أحدثها لى شو وولز وإبسن وداروين .

وفى تلك السنوات أيضاً كان فى لندن مجلات أسبوعية أدبية كثيرة تختص بدراسة الأدب الإنجليزى والأوربى . وكانت «ذى أثينيوم» ثم «ذى أكاديمى» أقوى هذه المجلات . وكانت الأولى راقية حاوية موضوعية . أما الثانية فكانت شخصية جدلية ، وكان يحررها اللورد ألفريد دوجلاس صديق أوسكار وايلد . وكان شاعراً أنيقاً ، ولكن تاريخه الماضى وعلاقته بأوسكار وايلد جعلا الجمهور الإنجليزى المحافظ يصد عنه ، وكانت مجلته تتزوى فى استحياء فى المكتبات يسأل عنها طالبها .

والعجب أنه ليس عند الإنجليز الآن مجلة أسبوعية واحدة للأدب إذا استثنينا الملحق الأدبى للتيمس ومجلة جون أو لندن وهى تكتب للعامة . وقد يعد القارئ هذه الحال تأخراً للحركة الأدبية ، ولكنى أعدّه تقدما . ذلك أن الأدب انتقل من برجه العاجى ، أدب للأدباء ، إلى الميدان الاجتماعى بل السياسى والاقتصادى ، ولذلك فإن المجلات السياسية الإنجليزية تعالج الأدب فى عناية وخبرة تدلان على أنها تعرف قدره فى التفكير والتوجيه . أو قل إن التطور السياسى فى أوربا قد أصبح حافلا بالانقلابات والانفجارات ، وإنه جذب إليه جميع الأدباء ، ولذلك صار الأدب مذهبيا يتحزب ويتشيع لآراء معينة فى السياسة أو الاجتماع أو الاقتصاد .

وهذا هو ما يجب أن يكون ؛ لأن الأدب للأدب هو الأدب فى الخواء . وقد يقال حَسْبُ الأدب أن يكون إنسانيا . ولكن كيف يكون كذلك إذا لم يشتبك فى المشكلات الإنسانية الحاضرة : السياسة والاقتصاد والاجتماع ؟

ووجدت من هذه الحركات الأدبية فى تلك السنوات توجيهاً لى وتربية . وكثير من مؤلفاتى ، إن لم يكن جميعها ، اتجهت فيها هذه الوجهة الاجتماعية ، حتى صرت أوصف بأنى « كاتب اجتماعى » . وكأن هؤلاء الواصفين أرادوا أن يميزوا بينى وبين الأدباء الذين ما زالوا يفصلون بين الأدب وبين الاجتماع . ولكنى ، مع ذلك ، أجد فرقا أساسيا آخر بينى وبين بعض الأدباء فى مصر ، هو أنى أمارس طرازا من البلاغة يمارسون هم غيره . ذلك أن طرازى أوربى وطرازهم عربى . وقد حملنى هذا الفرق أن أؤلف كتابى « اللغة العربية والبلاغة

العصرية » ؛ لأن بلاغتنا التقليدية لا تلابس حضارتنا العصرية ، وقد وجدت فيها عجزاً عن التعبير لشئون عصرنا ، فاخترت أسلوبا آخر للتعبير الذى يجمع بين الفن والاقتصاد ، كما يكون على وجدان بقيمة التفكير ثم التعبير العلمى . فإن معاجمنا العربية التى ورثناها عن الأدب العربى تقول مثلا إن الطب هو السحر . ولكنا فى القرن العشرين نقول إن السحر هو الخرافة . وإن الطب قد صار علما تجريبيا اجتماعيا بيولوجيا . ويجب ، لهذا السبب ، أن تلابس البلاغة العصرية عند الكاتب العصرى ، هذا الطب الجديد فتكون هى أيضا علما تجريبيا اجتماعيا بيولوجيا . وبكلمة أخرى أقول : إن البلاغة ، كاللغة ، اجتماعية . أى إنها تخدم المجتمع وتلابسه . فإذا تغير المجتمع وجب أن تتغير البلاغة . ومجتمع القرن العشرين يحتاج إلى بلاغة القرن العشرين ، بلاغة العلم والاجتماع الجديدين لا بلاغة العباسيين ولا بلاغة الأمويين .

سلامة موسى